الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان» تحت «باب الإيمان بالقدر»:

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُبعث الله إليه ملَكَاً بأربع كلمات ؛ فيَكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليَعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلَها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) متفق عليه .

****

هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أورده المصنف رحمه الله تعالى في باب الإيمان بالقدر ، وقد مضى الحديث عن أهمية الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الإيمان العظيمة وركنٌ من أركان هذا الدين ، وأنه نظام التوحيد كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب القدر نقض تكذيبه توحيده» ، فالإيمان بالقدر شأنه في الدين عظيم ومكانته فيه علية . وأيضا مر معنا الكلام على مراتب القدر الأربعة التي لا إيمان لأحدٍ بالقدر حتى يؤمن بها ، وساق المصنف رحمه الله تعالى جملة من الأدلة

الدالة على مكانة الإيمان بالقدر وعظم شأنه في دين الله تبارك وتعالى من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

ثم بعد ذلك شرع رحمه الله تعالى في ذكر الأدلة التي تتعلق بمراتب التقدير ، وذلكم أن من الإيمان بالقدر الإيمان بالتقديرات التي قدرها الله سبحانه وتعالى على فترات؛ كالتقدير العام الذي مر معنا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكالتقدير الذي مر معنا في حديث عمر وحديث هشام بن حكيم ، وذلك عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره ، كذلك ما سيأتي معنا في هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فهذه التقديرات الإيمان بها من الإيمان بالقدر ؛ ولهذا ينبغي على المسلم أن يجعل من إيمانه بالقدر إيمانه بهذه التقديرات التي ثبتت في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والنصوص دلت على أنواع من التقديرات :

- أولها التقدير العام ؛ وهو الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهذا التقدير العام يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) ، وهذا يقال له «التقدير العام» ، وقد كان هذا التقدير العام قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . ثم يأتي بعد هذا التقدير تقديرات أخرى قال أهل العلم هي كالتفصيل للتقدير العام وهي داخلة فيه ليست خارجةً عنه ، فهي كالتفصيل للتقدير العام وهي تقديرٌ من بعد تقدير ، وكل التقديرات التي أتت بعد التقدير العام هي داخلة فيه ليست خارجة عنه . فإذًا التقدير الأول هو التقدير العام .
- ثم بعد ذلك يأتي التقدير الذي كان عندما أخرج الله سبحانه وتعالى ذرية آدم من ظهر أبيهم وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ فهذا أيضا تقديرٌ دل عليه حديث عمر والحديث الذي بعده حديث هشام بن حكيم وغيرهما من الأحاديث الواردة في هذا الباب .
- ثم النوع الثالث من أنواع التقدير أو المرتبة الثالثة من مراتب التقدير: التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان بعينه أو بشخصه ، وذلك عندما يكون جنينا في رحم أمه حيث يبعث الله تبارك وتعالى إليه ملكا ويؤمر بكتب أربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد ، فهذا التقدير الذي جاء في حديث عبد الله بن مسعود الذي أورده المصنف هنا هذا يسمى «التقدير العمري» وهو الذي يتعلق بعمر كل إنسان في شخصه ؛ حيث يرسل الملك ويؤمر بكتب أربع كلمات كتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد ، وهذه الأمور التي يكتبها للملك هي تقديرٌ يتعلق بشخص هذا الإنسان ؛ ماذا يرزق؟ ومتى يموت؟ وما هي أعماله أطاعات أم سيئات؟ كل ذلك يُكتب عليه ، وهذه الكتابة التي تكون على الإنسان وهو في رحم الأم ليست خارجة عن التقدير العام الذي كُتب في اللوح المحفوظ بل هي داخلة فيه ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالى

عن هذه التقديرات أنها تقديرٌ من بعد تقدير ، وقالوا أيضا أن هذا تقديرٌ يعتبر تفصيلا للتقدير السابق ؛ التقدير العام الذي كتيب في اللوح المحفوظ .

- النوع الرابع أو المرتبة الرابعة من مراتب التقديرات: التقدير السنوي ؛ أي التقدير الذي يكون في كل سنة، والله عز وجل شاء أن يقدِّر كل سنة ما هو كائن فيها إلى السنة الأخرى وذلك في ليلة القدر ، كما قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤] ، قد جاء عن غير واحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن معنى قوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يقدَّر فيها ما هو كائن طوال السنة إلى ليلة القدر الأخرى، فيقدَّر في تلك الليلة من يموت في هذه السنة من يمرض من يهتدي.. إلى آخره ، حتى ذكر بعض المفسرين أنه يُكتب فيها من سيحج ، فلان بن فلان وفلان بن فلان هؤلاء سيحجون هذه السنة يُكتب في ليلة القدر ، فيكتب في ليلة القدر ويقدر في ليلة القدر ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ، ولهذا لما سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم ماذا تقول ليلة القدر ؟ قال: ((تَقُولِينَ: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي)) ، لأنك إذا كُتبت في ليلة القدر من أهل العافية وأهل المعافاة سعدت في العام كله، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فهي ليلة ليست كالليالي ليلة لها شأن عظيم ولها مكانة علية وهي خير من ألف شهر وفيها يقدر ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر١-٤] . وقوله هنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ نظير قوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ؛ فليلة القدر يُكتب ويقدَّر فيها ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ، هذا يسميه أهل العلم «التقدير السنوي» أي التقدير الذي يكون في يومٍ من السنة لما هو كائن في السنة كلها ، وشاء الله عز وجل أن يكون هذا اليوم الذي يقدَّر فيه ما هو كائن في السنة كلها هو ليلة القدر خير الليالي وأشرفها وأفضلها .
- ثم يأتي التقدير اليومي لما هو كائن في كل يوم بعينه ، وهذا يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩] قال أهل العلم في تفسير الآية: الشأن أن يحيي هذا ، ويميت هذا ، ويمرض هذا ، ويسقم هذا، ويُصح هذا ، ويهدي هذا ويضل هذا ، إلى آخره .

فهذه تقديرات ثابتة في كتاب الله وثابتة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ومن إيمان العبد بأقدار الله تبارك وتعالى أن يؤمن بهذه التقديرات ، وهي خمس تقديرات: التقدير العام ، والتقدير الذي كان عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره ، وبعض أهل العلم يعرِض عن ذكر هذا التقدير ويكتفي بالتقدير العام ، والتقديرات الثلاثة التي ذُكرت على اعتبار أنه داخل في التقدير العام وهو قريب من التقدير العام من حيث أنه يُكتب فيه ما

هو كائن لذرية آدم بعمومهم إلى أن تقوم الساعة ، بخلاف التقدير العمري يتعلق بعمر كل إنسان بعينه ، والسنوي يتعلق بكل سنة بخصوصها ، واليومي يتعلق بتقدير كل يوم بخصوصه ؛ ولهذا بعض العلماء يعدُّها أربع تقديرات: العام والعمري والسنوي واليومي ، وبعضهم يضيف إليها التقدير الخامس الذي هو التقدير الذي كان عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير كما مر معنا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

وهذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد بدأه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: ((**حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق**))؛ «الصادق»: أي فيما يخبر به عن الله وفيما يبينه من دين الله وشرعه ، فهو صادق عليه الصلاة والسلام بل لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ، و«مصدوق»: أي مؤيد من ربه بالشواهد والآيات والحجج والبراهين التي تدل على صدقه صلوات الله وسلامه عليه وصدق ما جاء به .

قال : ((**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة**)) «إن أحدكم» هذا يشمل كل بني آدم ، شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون خلْق كل واحد وكل فرد من أفراد بني آدم يمر بهذه المراحل ، فأول ما يكون هذا الإنسان السوي الممتع بالسمع والبصر والقوى أول ما يكون نطفة من ماء مهين تخرج من صلب الأب وتستقر في رحم الأم، ولهذا قال هنا ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة)) تستقر النطفة في رحم الأم وتبقى على هذه الهيئة وكونها نطفة أربعين يوما ، وتأخذ بالتغير إلى علقة إلى قطعة صغيرة من الدم تأخذ وقتا تتغير بالتدريج وتتحول بالتدريج بقدرة رب العالمين تبارك وتعالى فتتحول هذه النطفة إلى علقة أي قطعة صغيرة من الدم ، وهذه المرحلة الثانية من المراحل التي ينتقل إليها الإنسان والتي يمر بها الإنسان في تكوين الله تبارك وتعالى له .

قال : ((**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك**)) أي أن هذه النطفة تتحول إلى علقة وتبقى أربعين يوما على هذه الصفة ، والعلقة: هي القطعة الصغيرة من الدم .

ثم بعد ذلك تتحول هذه القطعة الصغيرة من الدم إلى مضغة ولهذا قال: ((**ثم يكون مضغة مثل ذلك**)) والمضغة كما قال أهل العلم رحمهم الله تعالى هي القطعة الصغيرة من اللحم ، بقدر ما يمضغه الإنسان أو ما يتمكن الإنسان من مضغه من اللحم ؛ وهذا إشارة إلى أنها قطع صغيرة ليست هبرة أو قطع كبيرة وإنما هي قطعة صغيرة من اللحم. وهذه المرحلة الثالثة نطفة ثم علقة ثم مضغة .

بعد ذلك يكون أكمل في رحم الأم من حين أن استقر نطفة فيها يكون أكمل مئة وعشرين يوما ؛ أربعين يوما نطفة ، وأربعين يوما علقة ، وأربعين يوما مضغة ، فيكون بذلك أكمل في مراحل تكوينه مئة وعشرين يوما . وتفكر الإنسان في مثل هذه المراحل التي مر بها يهديه إلى كمال الخالق وعظمة الرب سبحانه وتعالى كيف أن هذه النطفة تتحول هذه التحويلات إلى أن أصبح الإنسان سويا ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ

الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:١-٣] فتفكُّر الإنسان في هذه المراحل يهديه ، بل إنه يفيده فوائد عظيمة في حياته في مسلكه ، ولهذا أحد السلف يقول متعجبًا معنى كلامه يقول : كيف يتكبر الإنسان ويختال ويتعاظم وقد خرج من مخرج البول مرتين!! لأنه لو تفكر الإنسان في مخرجه لابتعد عن الكبر ولتواضع ولَلَان جانبه ولعرف حقيقة نفسه ، خرج من مخرج البول مرتين: مرة نطفة من مخرج بول والده ، ومرة طفلًا صغيرا من مخرج بول أمه ، فخرج من مخرج البول مرتين فكيف يتكبر! وكيف يختال! وكيف يتعاظم! وكيف يغتر وهذه حقيقة حاله!! بل قال بعض أهل العلم أيضا قريبا من هذا المعنى :كيف يتكبر الإنسان وأوله نطفة وآخره جيفة في القبر عندما يدفن وهو بين ذلك يحمل العذرة في بطنه !! فلماذا يختال ولماذا يتكبر وهذه حقيقة حاله !!

الشاهد أن تفكر الإنسان في هذه المراحل من الأمور العظيمة المهمة التي تفيد الإنسان فوائد عظيمة جدًا لا حد لها ، حتى من الفوائد التي تستفاد: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى الله يقول: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [الحج:٥] هذا من البراهين على كمال قدرة الله ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ يعني إن كنتم في شك من قدرة الله سبحانه وتعالى على بعث الأجساد بعد دفنها ومواراتها في التراب فانظروا في الخلق الأول ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ فخلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى غير ذلك من المراحل كل ذلك من الأمور التي تبعث في الإنسان وتحرك في الإنسان أبوابًا كثيرة من الهداية .

والإنسان مر بمراحل سبعة جاء ذكر بعضها في هذا الحديث وفي بعض الآيات وجُمعت في الآيات التي جاءت في سورة المؤمنون ، قد كان جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقول : «إن ابن آدم خلق في سبع مراحل» أي التي يمر بها ابن آدم ، ثم كان يتلو قول الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ هذه المرحلة الأولى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ هذه سبعة مراحل ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ أي أصبح إنسانا سويا له السمع وله البصر وله اليد وله.. ، حتى تحول قطعة اللحم إلى العظام ثم من هذه القطعة من اللحم ينهض الرأس ويبدأ ثم تخرج الأيدي ثم الأرجل كل هذه المراحل التي تتكوَّن ويمر بها الإنسان كلها من دلائل قدرة الله تبارك وتعالى ولهذا قال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . فتفكر الإنسان في هذه المراحل العظيمة من الأمور التي تهديه إلى الإيمان بكمال قدرة الله وكمال صنعه وخلقه تبارك وتعالى ، وكمال

تقديره وتدبيره ، وأنه عز وجل المستحق للعبادة والذل والخضوع جل وعلا ، وأيضا يهديه إلى قدرته على البعث ، يهديه أيضا إلى معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وحقيقة حاله ، إلى غير ذلك من أنواع من الهدايات .

ثم وأنت تتأمل في الهدايات المستفادة هنا في هذا الباب العظيم تعجب غاية العجب عندما ترى أقوامًا خلقهم الله عز وجل ومرُّوا بهذه المراحل العظيمة العجيبة إلى أن استووا على هيئة الإنسان السوي بالسمع والبصر ثم تراهم يعكفون على أحجار أو على قباب أو على أضرحة يسألونها ويرجونها ويخضعون لها وينطرحون بين يديها راغبين راهبين ينسون رب العالمين تبارك وتعالى الذي أوجدهم وخلقهم وأمدَّهم بالسمع والبصر ؛ أين عقول هؤلاء في التفكر بهذا الخلق وهذا الإيجاد وهذا الإبداع وهذا التصوير وهذا التكوين من الله جل وعلا !! لو فكر هؤلاء في حقيقة حالهم لما كان منهم ذل ولا خضوع ولا انكسار إلا لله تبارك وتعالى الذي خلقهم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر:٣] هو الخالق وحده ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] هو الخالق وحده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠] كل ذلك لله تبارك وتعالى فكيف يُذل لغيره! وكيف يلتجأ لغيره! وكيف ينكسر بين يدي غيره! وتصرف العبادة لغيره! مع أنه جل وعلا المتفرد بخلق الأشياء ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تبارك وتعالى .

قال هنا في حديث ابن مسعود: ((**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُبعث الله إليه ملَكاً بأربع كلمات**))؛ «يبعث» أي يرسل «ملكا» أي ملكا من الملائكة وكل الله عز وجل إليه هذه الكتابة كتابة ما يتعلق بالإنسان إلى أن يموت يكتب كل ما هو متعلق به .

قال: ((**فيَكتب عمله**)) أي ماذا سيعمل؟ صلاة صيام حج صدقة بر الوالدين إلى آخره ، وأيضا إن كانت أعمالا سيئة تُكتب من سرقة من كذب من غش من زنا من فواحش إلى آخره كل ذلك يكتبه الملك ، يكتبه في هذا الوقت كما بيَّن نبينا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه((فيكتب عمله)) أي الأعمال التي سيقوم بها . و«عمل» هنا مفرد مضاف فيعم كل عمل سيقوم به الإنسان ، ((فيؤمر بكتب أربع كلمات عمله)) : أي كل عملٍ يقوم به الإنسان إلى أن يموت ، جميع الأعمال يكتبها الملك ، وكلها تسطر وتُكتب .

قال: ((**وأجله**)) أي متى سيموت؟ كم عمره؟ ما هو الوقت الذي يموت فيه؟ والله عز وجل يقول ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] ويقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤] ، فالأجل محدد وكتب

على الإنسان كما أنه كتب على الإنسان في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة فكتب أيضا ثانية على الإنسان وهو في رحم أمه ،كتب الملك متى سيموت؟ فموت الإنسان والأجل الذي أجِّل له وحُد له لن يتجاوزه ولن أيضا يموت قبل أجله ، لن يموت الإنسان إلا إذا جاء الأجل وحضرت المنية التي كُتبت .

قال ((**ورزقه**)) أيضا يكتب ما سيطعم وما سيشرب كل ذلك يُكتب الطعام والشراب الذي يتناوله الإنسان على مر الأيام كل ذلك يُكتب على الإنسان وهو في رحم أمه قبل أن يخرج إلى الدنيا وقبل أن يشاهد الدنيا يُكتب كل ما هو متناول له أو طاعم له أو شارب له مدة حياته كل ذلك يكتب ؛ وهذا فيه إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[الملك:١٤] فيه إحاطة علم الله تبارك وتعالى بمخلوقاته أحاط بها علمًا جل وعلا ، وهذا أيضا إضافةً إلى علم الله به يكتب على الإنسان ، يُكتب ماذا سيطعم ماذا سيتناول ماذا سيشرب كل ذلك يكتب على الإنسان .

وخلق الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات وإيجاده لها هو من الشواهد والدلائل على إحاطة علمه بها كما قال جل وعلا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؛ هذا من الشواهد والدلائل ، ولهذا من بديع الاستدلال وجميله في الرد على الملاحدة ما ذكره الإمام الحافظ التيمي رحمه الله تعالى في كتابه الحجة عندما أشار إلى أن أحد الملاحدة أراد أن يشكك بعض المسلمين في هذه المسألة أن الله عز وجل هو المتفرد بالخلق ؛ فأحضر كوبًا ووضع فيه أشياء متعفنة من اللحم أو غيره وأغلقها وتركها بضعة أيام ثم أحضرها وإذا بها ممتلئة من الدود فقال لهم مشككًا "هذه أنا الذي خلقتها ، الكوب لم يكن فيه شيء من هذه الكائنات وأنا بهذه الطريقة وبهذه العملية أنا الذي خلقت هذا الدود" فقال له أحد الحاضرين وهو أصغرهم سنا يسَّر الله عز وجل الحجة على لسانه فقال له: لم يكن أحدٌ ليخلق إلا ويعلم عدد ما خلق وأرزاقهم وآجالهم فأبِن لنا ذلك كله ؟ إذا كنت تدَّعي أن هذه مخلوقات لك وأنت الذي خلقتها كم عدد مخلوقاتك؟ كم عدد هذا الدود الذي خلقته؟ هذا السؤال الأول ، السؤال الثاني: كم عدد الذكور من الإناث؟ السؤال الثالث: كل واحدة من هذه الدود ماذا ستطعم وماذا ستأكل؟ والسؤال الرابع :كل دودة متى ستموت؟ مادمت تدَّعي أنها مخلوقات لك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ هذا برهان ، الخلق دليل على العلم ولهذا من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله الأزلي ، الإيمان بعلمه تبارك وتعالى المحيط بما كان وبما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه تبارك وتعالى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا .

فإذًا هذا الذي يمر علينا الآن في حديث ابن مسعود ألا وهو أن الله عز وجل يبعث ملكًا ويأمره بكتابة عمل الإنسان ورزقه وأجله وشقي هو أو سعيد هذه كلها من الدلائل والبراهين على كمال إحاطة الله علم الله جل وعلا بكل شيء؛ بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون .

قال: ((**فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد**)) أي يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ، جعلنا الله وإياكم من أهل السعادة ، يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ، ومر معنا في حديث علي رضي الله عنه قال لما قال النبي عليه الصلاة والسلام ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) وهذا فيه تمييز للسعداء من الأشقياء فقال علي : «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) ، فهنا يقول : ((**وشقي هو أو سعيد**)) أي يكتب ، وهذه الكتابة شقي هو أو سعيد هي أيضا كتبت في اللوح المحفوظ ، كتب في اللوح المحفوظ السعداء وكتب أيضا في اللوح المحفوظ الأشقياء ((ومن كان من أهل السعادة يسره الله تبارك وتعالى لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل اهل الشقاوة)) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥-١٠] .

قال: ((**ثم يُنفخ فيه الروح**)) أي يُنفخ في هذا الكائن في رحم الأم الذي تحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، فبعد أن يكمل مئة وعشرين يوما ينفخ فيه الروح وتصبح الروح تتحرك فيه .

قال: ((**فوالذي لا إله غيره**)) يقسم صلوات الله وسلامه عليه بالله .

قال: ((**فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليَعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**)) ؛ «فيسبق عليه الكتاب» ذكر النبي عليه الصلاة والسلام مقسمًا بالله تبارك وتعالى على ذلك تأكيدًا إلى أن الأمور مكتوبة وأن من كان كُتب من أهل الشقاوة ومن كتب من أهل النار حتى لو عمل بعمل أهل الجنة يُختم له بعمل أهل النار ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليَعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلَها)) ، ولهذا كان السلف ويُنقل عنهم في هذا نقول كثيرة أورد بعضها الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في شرحه للأربعين في شرحه لهذا الحديث في الأربعين النووية أنهم كانوا يخافون من شيئين: كانوا يخافون من الكتاب السابق ، ويخافون من الخواتم؛ لا يدري الإنسان ماذا كُتب له؟ وبماذا يختم له في كتابه الذي كتب له؟ ويخافون من الخواتيم أي من سوء الخاتمة أن يموت الإنسان والعياذ بالله على خاتمة سيئة لا ينال بها إلا غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه وناره ، فكانوا يخافون من ذلك ويؤرقهم هذا الأمر ويؤرقهم الكتاب السابق ويؤرقهم أيضا الخواتيم ، وكل من هذين الأمرين مستفادٌ الخوف من قوله عليه الصلاة والسلام ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليَعمل بعمل أهل الجنة حتى ما

يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب)) هذا الكتاب السابق ((فيعمل بعمل أهل النار)) هذه الخواتيم السيئة والعياذ بالله ((فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) .

ولهذا حقٌ على العاقل أن يخاف من هذا الأمر وأن يحسن الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وأن يصلح –وهذا أمر في غاية الأهمية– أن يصلح سريرته بينه وبين الله تبارك وتعالى ، وأن يجتهد في أن يبعد من قلبه الدواخل السيئة والنيات السيئة ، يجتهد في البعد عن ذلك كله ، ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث من حديث سهل ابن سعد وهي إضافة مهمة صحت عن النبي عليه الصلاة والسلام وفيها بيان لهذا الأمر قال عليه الصلاة والسلام: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) ، فقوله عليه الصلاة والسلام ((فيما يبدو للناس)) فيه تنبيه على أمر ألا وهو: أن من صلحت سريرته بينه وبين الله وصدق مع الله في التجائه ، في إصلاح نفسه ، في صدقه مع ربه ؛ فإنه بإذن الله لا يختم له بالخواتيم السيئة ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٣٠] ، لكن البلاء عندما يكون في قلب الإنسان دواخل سيئة ونوايا سيئة وأمور غير نظيفة وأعماله فيما يظهر للناس أعمال جيدة وأعمال صالحة فمثل هذا هو الحقيق بأن يبوء بمثل هذه الخواتيم ؛ ولهذا نقل ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الجواب الكافي عن بعض أهل العلم أنه قال كلاما معناه: لا يُعرف لمن صحت عقيدته أن يختم له بخاتمة سيئة ، من صحت عقيدته بينه وبين الله في قلبه وبينه وبين ربه تبارك وتعالى لا يُعرف من كان بمثل هذا الصلاح أن يختم له بخاتمة سيئة ، لكن الخاتمة السيئة إذا كان صلاح الإنسان الظاهر فيما يبدو للناس أما في الداخل ليس ففيه نوايا وفيه خبايا سوء وفيه دواخل سيئة في قلبه.

ولهذا كان من أهم ما ينبغي أن يعتني به المسلم أن يصلح سريرته بينه وبين الله تبارك وتعالى وينقيها ويسأل الله تبارك وتعالى أن يصلح له قلبه ، وفي الحديث ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا))، فيدعو الله ويجاهد نفسه على صلاح قلبه بالبعد عن مثل هذه الأمور أو مثل هذه الدواخل السيئة التي تكون في القلوب .

فإذًا هذه الزيادة التي جاءت في حديث سهل بن سعد هي زيادة مهمة وعظيمة جدًا وفيها بيان لهذا الأمر قال ((فيما يبدو للناس)) أي فيما يظهر للناس أما في الداخل ففيه نوع من الخلل أو نوع من الفساد . فأفادنا هذا الأمر أن من أهم ما ينبغي أن يعنى به المرء بينه وبين الله سبحانه وتعالى أن يجاهد نفسه في إصلاح قلبه وتنقية سريرته وأن يجاهد نفسه على سلامة القلب ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩] .

قال: ((**فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**)) أي يدخل النار ، وهذا فيه من الفائدة أن العبرة بالخواتيم ، ((إنما

الأعمال بالخواتيم)) والعبرة في حال الإنسان بما يُختم له ، فمن خُتم له بالخاتمة الحسنى كان من أهل الحسنى ، ومن ختم له بخاتمة اهل الشقاوة والعياذ بالله كان من أهل الشقاوة ، وفي الحديث ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)) .

قال: ((**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)) وهذا فيه أن من الناس من يعمل حياته بعمل أهل النار من المعاصي والآثام والفسوق والفجور والكفر والعصيان ، فيسبق عليه الكتاب يكون له سابقة حسنى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١] يكون له سابقة حسنى فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، حتى إنه بعض الناس تكون هذه السابقة سابقة الحسنى له قبل وفاته بلحظات يسيرة جدا ، قد يكون حياته كلها على الكفر ويكون كتب الله سبحانه وتعالى له فيما كتب في اللوح المحفوظ أن يسْلم ويهتدي قبل أن يموت بلحظات بدقائق ليس ساعات ، تكون حياته كلها على الكفر ويكون اهتداؤه واستقامته في دقائق ! مثل ما جاء في القصة التي أوردها الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى وجوَّد إسنادها عند تفسيره لقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ ؛ ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي لم يخلطوه بشيء ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي أمن تام واهتداء تام في الدنيا والآخرة .

أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قصة رجل من الأعراب أتى يطلب النبي عليه الصلاة والسلام ويبحث عنه بحثًا عن الإسلام وطلبًا له وقطع مسافات طوال ، راكب على بعيره حتى جاء ووصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم قائما على قدميه ، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام عما بُعث به وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه وكان الرجل راكبا على بعيره ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة)) ذكر له مباني الإسلام ، فقال الرجل وهو على بعيره «أقررت» أي أقررت بهذا الذي تدعوني إليه ، فدخل بإقراره هذا في الإسلام ، لما قال أقررت ساخت قدم بعيره في حفرة جرذان، وحفرة الجرذان هو الفأر الكبير وحفرته تكون الأرض هشة وإذا وطأ عليها البعير تسيخ قدمه ثم يسقط ، فساخت قدم بعيره في حفرة جرذان فسقط الرجل من فوق البعير على عنقه ومات من لحظته ، حياته كلها على الكفر وحظه من الإسلام هو «أقررت» !! وأقررت هذه لم يعش معها حياة الإسلام إلا يمكن دقيقة واحدة أو دقيقتين أو ثلاث دقائق ! وحياته كلها على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، فأسلم وليس له من الإسلام إلا هذه الكلمة «أقررت» أي أقررت بما تدعوني إليه وسقط ومات ؛ فسبق له من الله سبحانه وتعالى سابقة الحسنى والخاتمة الحسنة ولم يكن له حظ من هذا الإسلام إلا هذا الإقرار الذي مات على إثره هذا الرجل .

جاء في بعض روايات الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((من أراد منكم أن ينظر إلى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فهذا منهم)) ؛ ولهذا أورد ابن كثير رحمه الله هذا الحديث عند هذه الآية ، لم يلبس إيمانه بظلم آمن ؛ قال «أقررت» ومات فلم يخلط إيمانه بشرك وختم له بهذه الخاتمة ، وجاء في بعض الروايات أنه قال : ((إذا أردتم أن تروا الذين عملوا قليلا وأجروا كثيرا فهذا منهم)) ، وجاء أيضا في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال للصحابة ((قوموا إلى صاحبكم)) سماه صاحبا له ، وقال أيضا في بعض الروايات ((إني رأيت الملائكة تدس الفاكهة في فيه)) لعله كان جائعا ، خُتم له بهذه الخاتمة وهذا من الشواهد .

قال: ((**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)) ؛ ومن الفوائد هنا العظيمة: أن ينتبه من مضى في حياته وقتا طويلا وعمرًا مديدا على الآثام والمعاصي والرزايا والخزايا والإعراض عن الله تبارك وتعالى أن يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى وطلب الخاتمة الطيبة ، جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه لقي رجلا كبيرا في السن وكأنه يعرف عنه بعض المعاصي أو بعض الآثام فقال له الحسن البصري منبهًا :كم تبلغ من العمر؟ قال ستون سنة ، قال أوما علِمت أنك في طريق وقد أوشكت أن تبلغ نهايته؟ فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له الحسن أوتعرف تفسيره؟ هذا الكلام هل تفهم معناه؟ قال وما تفسيره؟ قال: «إنا لله» أي أنا لله عبد ، «وإنا إليه راجعون» أي أنا إليه راجع ، فإذا علمت أنك لله عبد وأنك إليه راجع فاعلم أنه سائلك ، وإذا علمت أنه سائلك فأعد للمسألة جوابا ؛ فانتبه الرجل قال وما الحيلة؟ أي أنا مقصر مفرط ماذا أفعل الآن؟ ما الحيلة؟ فقال له كلمة عظيمة جدًا هي كنز من الكنوز ، قال له: «أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى» ، وهذا الذي ذكره الحسن البصري صح بلفظه مرفوعا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال هذا الكلام ((أحسن فيما بقي يغفر لك ما قد مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى)) .

ولهذا من مضى في حياة تفريط وتقصير وتضييع وإهمال ووقوع في الذنوب يتدارك ما بقي من حياته ، ولربما الذي بقي من حياته أيام قلائل أو ساعات قلائل ما يدريه!! فيصلح ما بينه وبين الله ويصلح سريرته ويصدق مع الله تبارك وتعالى ويبدأ صفحة جديدة وحياة مباركة وأياما عامرة ويترك تلك الحياة حياة الضياع وحياة التفريط ، والعبرة بالخواتيم يصلح خواتيمه بالتجائه إلى ربه وسؤاله ومجاهدة نفسه على طاعة الله تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

ومن القصص التي في هذا الباب التي هي من شواهد الواقع لقوله عليه الصلاة والسلام ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار)) إلى آخره : ما ذكره أحد الطلبة في هذا المجلس من إحدى الدول دول الكفر يقول إن جدته كانوا

يحاولون معها على الإسلام محاولات كثيرة جدًا وعمرها فوق التسعين ، يقول حاولنا معها كثيرا وتأبى ، ثم ساق لنا البشارة في هذا المكان أن جدته أسلمت وماتت بعد إسلامها بثلاثة أيام ، أكثر من تسعين سنة على الكفر وثلاثة أيام على الإسلام!! فالعبرة بالخواتيم .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يهتم بأمر الخاتمة ، وأن يجاهد نفسه على إصلاح السريرة بينه وبين الله تبارك وتعالى وتطهير القلب وتنقيته وتزكية النفس والاجتهاد في العمل الصالح والبعد عما يسخط الله تبارك وتعالى ، ومع هذا كله يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لجوءً كاملا أن يهديه ، أن يثبته ، أن لا يزيغ قلبه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران:٨] ، قد كان أكثر دعاء سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) ، تقول أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها وجاء عن أنس وغيرهما من الصحابة «كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قالت أم سلمة: فقلت يا رسول الله أوإن القلوب لتتقلب؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)) .

فيكون الإنسان دائم الالتجاء إلى الله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ كان من دعائه صلوات الله وسلامه عليه كما في الصحيحين: ((اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون)) ، وكان عليه الصلاة والسلام في كل مرة يخرج فيها من بيته يقول : ((اللهم إني أعوذ بك أن أضِل أو أضَل ، أو أزِل أو أزَل ، أو أظلِم أو أظلَم ، أو أجهل أو يُجهل علي)) دعوات مأثورة عنه في هذا المعنى كثيرة جدا ، وكل ما سبق يتلخص في قوله عليه الصلاة والسلام ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) وسيأتي الحديث بهذا عن النبي صلى الله عليه وسلم عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يدخل المَلَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان ، فيقول : يا رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا يُنقص)) رواه مسلم.

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث حذيفة رضي الله عنه وهو في صحيح مسلم ، وهو بمعنى حديث ابن مسعود ولهذا ساقه بعده . قال عليه الصلاة والسلام : ((**يدخل المَلَك على النطفة**)) الملك: أي الذي وكل الله سبحانه وتعالى إليه هذا الأمر ، يدخل الملك على النطفة: أي في الرحم .

((**يدخل المَلَك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة**)) وهنا في هذا الحديث أن دخول الملك وإتيانه وكتابته بعد أن يتم أربعين ليلة أو خمس وأربعين ليلة ، وفي حديث ابن مسعود المتقدم أن الكتابة بعد مئة وعشرين ؛ ولهذا بعض العلماء وفَّق بين الحديثين بأن الكتابة تكون في الرحم مرتين : مرة في الأربعين أو الخمس والأربعين كما في حديث حذيفة ، ومرة بعد المئة والعشرين كما يستفاد ذلك من حديث ابن مسعود . وبعض أهل العلم قالوا لا، إن الكتابة واحدة ليست مرتين ، والملك يكتب على الإنسان شقي أو سعيد إلى آخره مرة واحدة وهي بعد الأربعين ، يعني في تمام الأربعين أو الخمس والأربعين يكتب ذلك ، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود ذكر تأخير كتابة الملك روعي فيه ترتيب المراحل ((إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك)) ذكرت المراحل التي يمر بها الإنسان متوالية متتابعة مراعاةً لذكر ترتيب المراحل ثم بعد ذلك ذُكر إتيان الملك وأمره بكتب أربع كلمات .فمن أهل العلم من رجح أن هذه الكتابة تكون بعد الأربعين ليلة إما أربعين أو خمس وأربعين كما هنا قال ((أربعين أو خمس وأربعين ليلة)) أن الكتابة تكون في هذا الوقت ، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنهما روعي فيه ذكر ترتيب المراحل أولا ، ثم بعد ذلك ذكرت مسألة كتابة الملك وبعْثه إليه وأنه يكتب أربع كلمات رزقه أجله وعمله وشقي هو أو سعيد .

قال: ((**فيقول يا رب أشقي أو سعيد**)) أي هذا الإنسان الذي أُمرت بكتابة حاله وعمله أشقي أو سعيد؟.

((**فيكتبان**)) أي يكتب عليه هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ؟

ثم يسأل الملك: ((**فيقول : يا رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان**)) يكتب عليه هل هو ذكر أو أنثى؟

((**ويَكتب عمله وأثره وأجله ورزقه**)) يكتبها الملك ، فهذه كلها تكتب على الإنسان .

قال: ((**ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا يُنقص**)) مثل ما جاء في الحديث الآخر ((رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، فتطوى الصحف أي أن ما كتب للإنسان لابد أن يكون . وإذا عرفنا أن ما كتب للإنسان لابد أن يكون ألَنا بناء على هذه المعرفة أن نتكل على الكتابة وندع العمل؟ لا والله ، الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي عن هذه المسألة وتقدم السؤال ، قالوا «يا رسول الله ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟» ، ألا نتكل على هذا الذي طوي وفرغ منه وكتب وندع العمل؟ قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) أي جاهد نفسك على العمل واحرص على ما ينفعك وفي ذلك كله استعن بالله ؛ استعن به أن يهديك أن يوفقك أن يثبتك أن يعيذك من الضلال أن يختم لك بالخاتمة الحسنى ، الأمور بيده جل وعلا والخلق خلقه والأمر أمره تبارك وتعالى ، فتلجأ إليه

وفي الوقت نفسه تجاهد نفسك مجاهدة تامة على القيام بالأعمال الطيبات والطاعات الزاكيات التي تتقرب بها إلى الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : دُعِي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: «طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءاً ولم يُدركه» فقال : ((أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)).

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وشاهد هذا الحديث للترجمة ونبدأ به هو قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((**إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**)) وهذا فيه أن الأمور مقدَّرة ومكتوبة ، وأن السعداء كتبوا وأن الأشقياء كتبوا ، وأن الأمر قدِّر للإنسان وطويت الصحف بما هو كائن . فهذا شاهد الحديث للترجمة أن الأمور مقدرة والسعداء من الأشقياء وأهل الجنة من أهل النار كل ذلك كُتب والحديث واضح في الدلالة على هذا الأمر .

قال: ((**إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**)) فهذا واضح تماما وهو في الدلالة في معنى الأحاديث والنصوص المتقدمة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى لتقرير هذا الباب وأن الأمور كلها بقدر بما في ذلكم أعمال العباد وأهل السعادة من أهل الشقاوة وأهل الجنة وأهل النار كل ذلك بقدر ؛ لأجل هذا ساق المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الجملة جاء على إثر قول عائشة رضي الله عنها عندما دُعِي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي أي طفل صغير من الأنصار ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ((**طوبى له عصفور من عصافير الجنة**)) وهذه شهادة له بالجنة .

قالت: ((**طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يُدركه**)) أي لم يعمل السوء ولم يدرك وقت عمل السوء لأنه مات صغيرا .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ((**أو غير ذلك**)) أي أولا تقولين غير هذا ؟

((**أوغير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**)) وقيل إن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله عنها تنبيها لها إلى عدم

المسارعة في مثل هذا الجواب وفي مثل هذه التزكية والشهادة ، وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك قبل أن يبلغه أو أن ينزَّل عليه أو أن يوحى إليه بأن أطفال المؤمنين في الجنة ، قد حكى بعض أهل العلم الإجماع على ذلك، لكثرة الشواهد والدلائل على أن أطفال المؤمنين وفرَطَهم في الجنة وأنهم أيضا يوم القيامة يشفعون لآبائهم وأمهاتهم ويكونون شفعاء لآبائهم وأمهاتهم ، وجاء في هذا أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ساق جملة منها الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح وأيضا في كتابه الأدب المفرد ، ففي هذا دلائل عديدة فيها أن أطفال المؤمنين في الجنة. فقيل لعل النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة هذا قبل أن يبلغه ، أو قاله لها تنبيها إلى عدم المسارعة إلى مثل هذا الجواب أو مثل هذه التزكية .

الشاهد من الحديث للترجمة هو قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله خلق للجنة أهلا..)) إلى آخر الحديث .

قال رحمه الله :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كل شيء بقدر حتى العجْزُ والكيْس)) رواه مسلم .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**كل شيء بقدر**)) وقوله «كل شيء» يتناول كل ما هو كائن ، لأن الخلق خلق الله والمُلك ملكه سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في ملكه إلا ما قدَّره ، لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لم يقدره الله وما لم يشأه سبحانه وتعالى ، فالخلق خلقه والملك ملكه سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في ملكه وفي خلقه إلا ما قَّدره جل وعز وشاءه سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام ((كل شيء بقدر)) وهذا هو بمعنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩] ، فكل شيء بقدر أي كل ما هو كائن بقدر ، سواء الأشخاص والذوات ، أو الأعمال والحركات والسكنات وغير ذلك كل ذلك بقدر .

((**كل شيء بقدر حتى العجْزُ والكيْس**)) أيضا هذا بقدر ؛ عجز الإنسان وكيسه أي نباهته وفطنته وذكاؤه إلى غير ذلك كل ذلك بقدر ، العجز: أي ما يكون عليه الإنسان من فتور وخمول وكسل وتوانٍ وتفريط هذا بقدر ، وأيضا الكيس ما يكون عليه الإنسان من نباهة وفطنة وحذق ونحو ذلك كل ذلك بقدر ((حتى العجز والكيس)) أي حتى العجز الذي يكون عليه بعض الناس والكيس الذي يكون عليه بعض الناس وهو النباهة أيضا هو بقدر ، والكيس: هو النباهة والفطنة، قد جاء في حديث يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفي سنده كلام ومعناه صحيح قال: ((الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)) لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من حيث المعنى المعنى صحيح ، الكيِّس أي من الناس

النبيه الحاذق الفطن العاقل من هو؟ من دان نفسه أي حاسبها ولامها وعمل لما بعد الموت ، والعاجز: من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ، فذُكر الكيس وذكر العجز هنا قال ((حتى العجز والكيس)) أي ما يكون عليه الإنسان من عجز أو ما يكون عليه من كيس أي نباهة وفطنة كل ذلك بقدر .

وإذا علم المسلم أن كل شيء بقدر حتى العجز والكيس هذا أيضا كما قدمت يقوي صلة الإنسان بالله سبحانه وتعالى ، ويقوي أيضا توجه العبد إلى الله وحسن سؤاله والطلب منه جل وعلا ، لأن الأمر بيده جل وعلا وبتقديره سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في الدعاء الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ((وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) وهذا من أعظم الأدعية التي ينبغي أن يعتنى بها في هذا الباب كما جاء في المسند والأدب المفرد للإمام البخاري رحمه الله تعالى أنه قال لعائشة رضي الله عنها : ((يا عائشة عليك بكوامل الدعاء وجُمله)) قالت «قلت وما كوامل الدعاء وجمله؟» قال : ((تقولين اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك من خير ما سألك منه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) ، لأن الأقضية والتقدير بيده سبحانه وتعالى ؛ فيسأل الإنسان ربه هذا السؤال العظيم ((وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) لأن العجز والكيس بقدر كل شيء بقدر ، فتسأل الله عز وجل أن يجعل كل قضاء قضاه لك خيرا ، وهي دعوة عظيمة ومباركة . وأيضا من الدعاء العظيم في هذا الباب أن تقول: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء» لأن القضاء بيده تبارك وتعالى فتستعيذ بالله من سوء القضاء ، مثل أن يقضى للإنسان بكفر أو بفسق أو بمعصية أو غير ذلك، تعوذ بالله من ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : ((تعوذوا بالله من سوء القضاء ودرَك الشقاء وشماتة الأعداء)) أمر عليه الصلاة والسلام بالتعوذ من هذه الأمور .

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((تعوذوا بالله من سوء القضاء)) يدلنا إلى الخطأ في الدعوة المشهورة على ألسنة كثير من العوام "اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه" هذا خطأ ، قولهم في هذا الدعاء "اللهم إني لا أسألك رد القضاء" جاء في هذا الدعاء التعوذ من سوء القضاء فكيف يقول القائل في دعائه "لا أسألك رد القضاء"!! ، فهذا خطأ ولا ينبغي الدعاء بهذه الدعوة لما فيها من خطأ وغلط وإن كانت مشتهرة ، حتى إنه من شهرتها أن بعض العوام يظنها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى إن أحد العوام مرة سمع التنبيه على هذا الحديث فجاء إليّ وقال: كيف هذا وهذا جاء في الحديث!! قلت له هذا لم يأت لا في حديث صحيح ولا ضعيف وليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولا من كلام أهل العلم ، هذا كلام غير صحيح ومخالف للأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عندنا علماء كثيرين يقولونه !! قلت العبرة بالمعاني الصحيحة وبالموافقة هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهذا أيضا يؤكد ما سبق التنبيه عليه

إلى أن الذي ينبغي على المسلم أن يحرص على دعوات النبي صلى الله عليه وسلم المأثورة عنه ؛ فإن فيها السلامة والعصمة ، وفيها التمام والكمال والرفعة .

قال رحمه الله تعالى :

وعن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤] قال : «يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها» رواه عبد الرزاق وابن جرير ، وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير ومقاتل .

****

ثم ذكر رحمه الله تعالى هنا هذه الآية : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤] وأورد فيها ما يروى عن السلف في بيان معناها ، وأنه يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها . وأن هذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير وغيرهم .

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] أيضا قوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ هذا مثل ما مر التقدير السنوي ، ثم يأتي بعد ذلك التقدير اليومي الذي يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] وسيأتي عند المصنف . ويكون المصف بما ساقه رحمه الله تعالى من روايات ذكر التقديرات الخمس : التقدير العام أولا ذكره في حديث علي ، ثم التقدير الذي عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره وهذا في حديث عمر وهو الحديث الذي بعده ، ثم التقدير العمري وهذا ساق فيه حديث عبدالله بن مسعود وحديث حذيفة ، ثم بعد ذلك التقدير السنوي وأورد فيه رحمه الله تعالى هذه الآية وتفسير السلف لها ، ثم التقدير اليومي أورد فيه قول الله سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درّةٍ بيضاء دفَّتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويُحيي ويُميت ويُعز ويُذِل ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]» رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى ذكر الأحاديث والنصوص المتعلقة بالتقديرات بهذا الحديث عن ابن عباس أنه قال : ((**إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درّةٍ بيضاء دفَّتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويُحيي ويُميت ويُعز ويُذِل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى :** ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾)) ؛ هذا موقوف على ابن عباس وسنده إليه فيه كلام ، لكن المصنف رحمه الله تعالى ساقه للآية الكريمة التي تدل على التقدير اليومي . وجاء عن عدد من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان تفسير الآية بهذا المعنى الذي أورده المصنف في قوله «يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء» هذا معنى قوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، فالمراد بقوله ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي من إحياء وإماتة وهداية إضلال إلى غير ذلك ، فهذا هو التقدير اليومي تدل عليه هذه الآية الكريمة .

ولما أنهى رحمه الله تعالى هذه الأدلة المشتملة على التقديرات الخمس ختم ذلك بكلمة جامعة للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها وقال : «فهذا تقديرٌ يومي ، والذي قبله تقدير حولي ، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به ، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض ، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق ؛ وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه» . ثم قال : «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يُوجب الاتكال عليه بل يُوجب الجدَّ والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنتُ بأشد اجتهاداً مني الآن ، وقال أبو عثمان النهدي لسلمان رضي الله عنه : لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بآخره ، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيَّأه ويسَّره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي يأتي بها» .

****

هنا المصنف رحمه الله تعالى ذكر هذه الكلمة العظيمة لابن القيم وفيها تلخيص لما احتوت عليه الأحاديث الواردة في التقديرات ، وأنها خمس تقديرات ذكرها ابن القيم رحمه الله بعد أن سرد الأحاديث الواردة في الباب ، فقال رحمه الله بعد ذكره للأحاديث وختَمها كما هو الترتيب عند المصنف هنا ختمها بالتقدير اليومي قال : ((**فهذا تقدير يومي**)) أي الوارد في قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

قال : ((**والذي قبله تقدير حولي**)) أو قُل سنوي أيضا وهو الوارد في قوله﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وفي قوله﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ؛ هذا يقال له حولي أو يقال له أيضا سنوي ، لأنه يتعلق بكل حول أو كل سنة بخصوصها .

قال : ((**والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به**)) أي بالإنسان ، وهذا يشير فيه رحمه الله إلى حديث ابن مسعود المتقدم وحديث حذيفة أيضا .

قال : ((**والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة**)) هذا الذي في حديث حذيفة ، وأشرت إلى أن بعض أهل العلم يذكر أن الكتابة كتابتين: كتابة كما يدل عليه حديث حذيفة عند أول كونه مضغة ، وكتابة أخرى بعد ذلك عند تعلق الروح به كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود ، ولعل هذه الجملة تفيد أن ابن القيم رحمه الله يرى أنها كتابتان: كتابة يدل عليها حديث ابن مسعود ، وكتابة يدل عليها حديث حذيفة .

أعيد مرة ثانية قول ابن القيم قال : ((والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به)) إشارة إلى قوله ((فينفخ فيه الروح ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فيؤمر بكتب أربع كلمات)) ، فعند تعلق الروح به يكتب .

قال: ((**والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة**)) وهذا كما جاء في حديث حذيفة الذي ساقه المصنف رحمه الله .

قال : ((**والذي قبله تقدير سابق على وجوده**)) أي في هذه الدنيا ((**لكن بعد خلق السماوات والأرض**)) .

((**والذي قبله**)) الذي هو التقدير العلم الذي جاء في حديث عبدالله بن عمرو ((**والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**)) هذه خلاصة جميلة ووافية لما اشتملت عليه النصوص في ذكر التقديرات .

قال : ((**وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق**)) يعني إذا نظرت الآن أو تأملت في قوله في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هل الذي يُفرق في ليلة القدر ويقدَّر هل هو أمر خارج عما كُتب في اللوح المحفوظ أو داخل فيه؟ داخل فيه ولهذا قال: كالتفصيل للتقدير السابق ، تفصيل لما كتب في اللوح المحفوظ فيما يتعلق بعموم الكائنات وعموم المخلوقات ، فهذا كالتفصيل له ليس خارجًا عنه بل هو تقدير من بعد تقدير وهو داخل في التقدير السابق .

قال : ((**وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه**)) أنت هنا عندما تنظر في هذه التقديرات تهديك وتدلك إلى كمال علم الله سبحانه وتعالى وكمال قدرته وتدبيره وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى .

ثم قال ابن القيم : ((**فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يُوجب الاتكال عليه**)) وهذه فائدة جليلة ومهمة وهي من أنفس ما يكون في هذا الباب ، لأن بعض الناس عندما يقرأ الأحاديث ربما يدع العمل أو تحدِّثه نفسه بترك العمل اتكالًا على القدر ، وهذا منهج خاطئ ، وقد عرفنا أن الصحابة رضي الله عنهم لما بيَّن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أمر القدر قالوا له : «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» فنهاهم عن ذلك وأمرهم بالعمل قال ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) .

قال : ((**كل هذه الأحاديث تدل على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يُوجب الجدَّ والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت بأشد اجتهاداً مني الآن**)) وهذا من فقه الصحابة وكمال علمهم . يقول ما كنت بأشد اجتهادًا مني الآن ، أي أنه لما سمع هذه الأحاديث وسمع قول النبي عليه الصلاة والسلام ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) صار أمره بعد سماع الحديث أكثر اجتهادا ومحافظة وجدًا في العمل منه قبل سماعه لهذا الحديث ، وهذا يدلنا على كمال فقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

((**وقال أبو عثمان النهدي لسلمان : لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحاً مني بآخره**)) أول هذا الأمر سابقة الحسنى التي يكتبها الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن ، أعظم مني فرحا بآخره .

قال ابن القيم موضحا : ((**وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي يأتي بها**)) أي يأتي بها العبد من جد واجتهاد وصبر ومصابرة ومرابطة وبذل الوسع ، ففرحه بسابقة الحسنى والتوفيق للهداية التي أكرمه الله سبحانه وتعالى ومنَّ عليه بها أعظم من فرحه بمباشرته لهذه الأسباب ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .